

المحاضرة الثانية

ما الأدب ؟

كلمة أدب وتطور دلالتها عبر العصور :

تطور مفهوم كلمة (الأدب) بتطور الحياة العربيّة عبر العصور الأدبيّة المتعاقبة منذ الجاهليّة حتى عصرنا الحاضر ، فقد كانت في الجاهليّة تعني الدعوة إلى الطعام ، من ذلك قول طرفة بن العبد :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الأدب فينا ينتقر

وفي العصر الإسلامي أصبح معناها الخلق القويم ، حيث قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : " أدبني ربي فأحسن تأديبي " ، واتسعت دائرة دلالتها في عصر صدر الإسلام لتشير إلى التهذيب والتربية .

وفي العصر الأمويّ اكتسبت كلمة أدب معنى تعليمياً يتصل بدراسة القرآن الكريم ، والحديث النبويّ الشريف ، والتاريخ ، والفقه ، وتعلّم المأثور من الشعر والنثر .

وفي العصر العباسيّ الأول اشتمل مفهوم كلمة " أدب " على علوم البلاغة واللّغة وسائر صنوف المعرفة . وفي العصر العباسيّ الثاني استقلت علوم اللّغة والنحو ، وازداد الاهتمام بشرح الشعر والنثر والتعليق عليهما ، ودراسة تراجم الأدباء .

أما اليوم فتلق كلمة " أدب " على الكلام الفنيّ البليغ الجميل ، الذي يعبر به إنسان موهوب عن أحاسيسه وتجاربه بلغة يمتزج فيها الخيال بالحقيقة فيؤثر في عواطف القراء والسامعين .

وينقسم الأدب إلى نثر وشعر ، أما النثر فقد قسمه العرب القدماء إلى : حكم وأمثال وأسجاع الكهان ورسائل وخطابة ثم مقامات ، وفي العصر الحديث نجد القصة والمسرحية والمقال . وعند الحديث عن تقسيمات الشعر فإنّ أول ما يطالعنا به التاريخ تقسيم أرسطو ومن جراه من الكلاسيكيين ، حيث يقسم الشعر إلى ثلاثة أقسام : قصصي ، وتمثيلي ، وغنائيّ ، ويقسم الشعر القصصي إلى ملحمة وقصيدة شعريّة ، ويقسم الملحمة إلى تاريخية وخيالية ، كما يُفرّع عن القصيدة الشعريّة فن البالد

الباليه_، ويقسم التمثيلي إلى مأساة وملهاة، كما يقسم الشعر الغنائي إلى شعر فكرة وشعر عاطفة، ويفرّع عن شعر الفكرة الأود والمرثية والسوناتا.

وقد تعارف العرب على عدّة تقسيمات للشعر منها ما يقوم على أساس اللغة فيقسم الشعر إلى رسمي وشعبي، والشعر الرسمي هم الذي نظم باللغة الفصحى وله أوزان وقواعد ثابتة، أما الشعبيّ فهو الذي اتخذ لغة أسهل وأقرب إلى التداول اليوميّ، واختار أوزاناً موسيقيةً سهلة، ومن فنونه: الموشح، المواليا أو الموالم، الزجل، الدوبيت، الكان كان، والقوما. ومن تلك التقسيمات ما يقوم على أساس الغرض فيقسم الشعر إلى حماسة، وفخر، وغزل، ومدح، وهجاء، ورتاء.

الأدب بمعناه العام :

إنّ الأدب صورة ومادة، ما في ذلك شك، ولكن صورة الأدب كما نراها، ليست هي الأسلوب الجامد، وليست هي اللّغة، بل هي عملية داخلية في قلب العمل الأدبي لتشكل مادته وإبراز مقوماته، ونحن لا نصف الصورة بأنّها عملية، مشيرين بذلك إلى الجهد الذي يبذله الأديب في تصوير المادة وتشكيلها، بل لما تتصف به الصورة نفسها في داخل العمل الأدبي نفسه، فهي حركة متصلة في قلب العمل الأدبيّ، نتبصر بها في دوائره ومحاوره ومنعطقاته، ونتنقل بها داخل العمل الأدبيّ من مستوى تعبيرى إلى مستوى تعبيرى آخر حتى يتكامل لدينا البناء الأدبيّ كأننا عضويًا حيًا. وبهذا الفهم الوظيفيّ للصورة تتكشف أمامنا ما بينها وبين المادة من تداخل وتفاعل ضروريين. فمادة العمل الأدبيّ ليست بدورها معاني_ كما يقول عميد الأدب والمدرسة القديمة _ بل هي أحداث، لا من حيث أنّها أحداث وقعت بالفعل ، ويشير العمل الأدبيّ إلى وقوعها، بل هي أحداث تقع وتتحقق داخل العمل الأدبيّ نفسه، ويشارك التذوق الأدبي في وقوعها وتحققها، وهي بدورها عمليات متشابكة متفاعلة بفضي بعضها إلى بعض إفضاءً حيًا، لا تعسف فيه ولا افتعال. والصورة في الحقيقة هي جماع هذه العمليات المفضية، وهذه الحركة النامية المتجهة في داخل العمل الأدبيّ بين أحداثه لإبرازها وربطها بالعناصر الأخرى التي يتكامل بها البناء الأدبيّ. وعلى هذا فالمعاني وحدها قيم متحجرة لا تصلح مادة للعمل، بل هي وسيلة من وسائله المختلفة لتحقيق أحداثه وخلق ارتباطاته الكاملة.

ومن ثم يلخص العالم وأنيس رؤيتهما النقدية في نهاية أحد مقالات الكتاب، نذكر من خلاصته

ما يلي :

١. إنَّ مضمون الأدب في جوهره أحداث تعكس مواقف ووقائع اجتماعية.

٢. إنَّ الصورة الأدبية أو الصياغة عملية لتشكيل هذا المضمون، وإبراز عناصره وتنمية مقوماته.

٣. إنَّ الأدب بناء مترابط ينمو نموًا داخليًا ويصوغ واقعًا اجتماعيًا صياغة متسقة.

الأدب ليس قواعد جامدة، أو صيغًا معزولة عن الحياة والواقع، أو خطبًا وعظية تنقلها النصوص والأحكام ، ولكنه صور جميلة نامية متطورة، تتزين بما يزيد جمالًا وجلالًا، ويجعلها أقوى تأثيرًا وفاعلية، ولا يستتف هذا الأدب أن يبتكر الجديد النافع الممتع، فالحياة في تجدد وتطور، وكذلك الإنسان وأساليب حياته العملية والعلمية الترفيهية، على أن يظل أدبنا في نطاق القيم الأصيلة، ملتزمًا بجوهرها وغايتها. الأدب أدب الضمير الحي، والوجدان السليم، والتصور الصحيح، والخيال البناء، والعواطف المستقيمة. لا ينحرف إلى انحراف نفسي، أو اعتلال شعوري، أو مرض فلسفي تقشّت جراثيمه في الماء والهواء والفنون والأفكار والسلوكيات ذلك هو مفهومنا الشامل للأدب .

فالأدب هو تعبير فني مؤثر نابع من ذات مؤمنة مترجم عن الحياة والإنسان والكون، وفق الأسس العقائدية للمسلم، وباعت للمتع والمنفعة، ومحرك للوجدان والفكر، ومحفز لاتخاذ موقف والقيام بنشاط ما.

٤. إنَّ الأدب يعدّ صياغة لغوية جمالية مؤثرة تعبر عن التجربة الإنسانية، يتأثر بالواقع المعاش ويرصد ما يخلفه من أثر في نفس الأديب، بحيث يكون قادرًا على امتاع المتلقي وإدهاشه، وهذا يؤكد طبيعة الأدب اللغوية، وخاصيته الجمالية، ويوسع مفهوم التجربة لتتسع لكل ما هو (ذاتي شخصي وما هو موضوعي عام)، كما يقرّ بعلاقة الأدب بظروف الزمان والمكان الذي يكتب فيه، فضلًا عن اهتمامه بجانب المتعة أو الأثر الذي يحدثه الأدب دون اقتصار على نقل الخبرة الإنسانية فقط. على أنّ هذا التعريف يراعي جوانب العملية الأدبية، فيشير إلى (طبيعة الأدب) صياغة لغوية، وإلى (مبدع الأدب) نفس الأديب ، وإلى متلقي الأدب (امتاع المتلقي) كما عرف الأدب كالتالي: (الأدب

تعبير راقٍ عن المشاعر والأفكار والآراء والخبرة الإنسانية)، وهو في معناه العام يشمل كل ما كُتِبَ
عت التجارب الإنسانية عامّة، ويشمل أيضًا الكتابات المختلفة من معلقات العرب وملاحم الإغريق،
وما سجله المصريون القدماء، وكذلك روايات نجيب محفوظ، ومغامرات ماركو بولو، ومسرحيات وليم
شكسبير، ومقامات الحريري، ورحلات ابن بطوطة، والكتب الهزلية، والسير الذاتية وما إلى ذلك.

أما الأدب بمعناه الضيق، فله أنماطه المختلفة. فقد تقرأ أدبًا كُتِبَ بلغة ما، مثل الأدب الفرنسي،
وقد ندرس كتابات تتناول شعبًا، مثل أدب الهنود الأمريكيين، وقد نتحدث في كثير من الأحيان عن
أدب حقبة معينة من الزمن، مثل أدب القرن التاسع عشر الميلاديّ مثلاً، هذا ويمكن أن نشير إلى
أدب يتناول موضوعًا معينًا مثل أدل الرحلات، أو قصص الخيال العلميّ أو أدب المقاومة .

كما هو أحد الفنون الجميلة أو ما يمكن أن يُشار إليه بالكتابة الجميلة، وإِنَّا لنميز بين الأدب
والكتب الهزلية تمامًا، كما نميز بين لعبة كرة القدم التي يمارسها لاعبون محترفون وأخرى لا تعدو
أن تكون لعبة في الكرة يمارسها اللاعبون في حديقة المنزل أو في فناء الدار، وحين نصف قطعة
مكتوبة بأنها أدب فإننا نمتدحها باطلاق هذا الوصف عليها .

أنواع الأدب :

يقسم الأدب إلى نمطين رئيسيين: الأدب الخيالي، والأدب غير الخيالي، فالأدب الخيالي يعني
الكتابة التي يبتدعها الفنان من مخيلته. وقد يُضمّن المؤلفون كتاباتهم حقائق تتناول أشخاصًا أو
أحداثًا حقيقية، غير أنّهم يمزجون هذه الحقائق بوضعيات خيالية. وجدير بالذكر أنّ معظم الأدب
الخيالي هو كتابات سردية شأن الروايات والقصص القصيرة، كما يشمل ذلك الكتابات المسرحية
والشعر أيضًا.

أما الأدب غير الخيالي فهو الكتابات التي تقدم حقائق تتناول مواضيع تدور حول الحياة
الواقعية، وتشمل الأنماط الرئيسية للأدب غير الخيالي المقالة، والتاريخ، والتراجم، والسير، واليوميات.
وكما عرفنا أنّ الأدب هو الشعر والنثر ، فإنّ النثر قد عُرف عند العرب ولغتهم العربية تفخر
وتزخر بالفصاحة والبراعة في كلامهم واشتهروا بفن القول، فالنثر قوي اللفظ، قصير الجمل، واضح

الفكرة، قليل الاستعارة، موجز الأسلوب، ومن أقسامه : (الخطابة ، الأمثال، الوصايا، الخواطر، الرسائل).

أما الشعر فهو كلام موزون مقفًى يعبر عن المشاعر، ويستخدم فيه صورًا بليغة وأنواعه هي : (غنائيّ وجدانيّ، تمثيلي ، قصصي). وإذا حللنا العمل الأدبيّ سواء أكان شعرًا أم نثرًا، نجدّه يشتمل على أربعة عناصر رئيسة، هي : الفكرة ، العاطفة، الخيال، الأسلوب).